Coptology

حوارات في تدبير المبتدئين

(٤)

محبة يسوع – ٢

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

السمات الخاصة بيسوع مُحب البشر

كان الصوم الأربعيني قد بدأ، وكانت الخلوة مسموحة لعدد قليل من الخدام. ومتابعة الحديث عن أساس المحبة كانت بالنسبة لي مسألة حياة أو موت، وعندما سألت: لماذا التشديد على المحبة؟

جاء الجواب صارماً، بل وصادماً؛ لأنه لم يكن جواب الأب، بل كانت هي كلمات الرسول يوحنا الإنجيلي.

قال: يقول الرسول الإنجيلي يوحنا: "أيها الأحباء"، فهو يخاطب من تذوَّق المحبة وتلامس معها، "لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله". وأنا أريد أن أتوقف قليلاً عند هذه العبارة. إذا كانت المحبة من الله، فهو الأساس الإلهي لحياة كل إنسان. وعندما يتابع الرسول بقية التعليم: "وكل مَن يحب فقد وُلِدَ من الله"، هل توقفت عند هذه العبارة؟ حسناً. إن الولادة من فوق هي في سر المعمودية، وهذا هو التعليم الرسولي، لكن الولادة من الله هي ولادة من محبة الثالوث، ليس لأنها تتم باسم الثالوث فقط، بل لأن الله الآب أفاض علينا أعظم نعمة، وهي نعمة التبني. مَن يحب فقد وُلِدَ من فوق من الله، ولذلك يقول الرسول: "ومَن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة" (١يوحنا ٤: ٧-٨).

عندما فاتحت أبونا البطريرك بضرورة إلغاء "أحد التناصير"، قال لي: هذا ممكن، ولكنه صعب بسبب قوة العادة. لقد طلبت حتى من بعض الآباء المطارنة أن يتم إعداد الأسرة لقبول سر المعمودية، إذا كان ضرورياً أن يبقى "أحد التناصير"، ولكن الأمر ضاع في ملفات الكنيسة، وما أكثرها.

أعود فأقول لك ولغيرك ولكل مسيحي: إن كنت لم تتذوق محبة الله المستعلَنة في يسوع، فأنت غريب.

سؤال: أرجو أن تقول لي كيف نتذوق المحبة الإلهية؟

قال: هذا ليس جهداً إنسانياً، بل هو "انسكاب روح المحبة في قلوبنا" (اقرأ رو ٥: ٥): "لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا". وعندما قرأت أن الفعل "يسكب"، و"انسكاب"، هو خاص بذبح الذبائح وسكب الدم، أعترفُ لكَ أن بدني قد اقشَعَر؛ لأن الروح القدس يسكب نفسه، أي يضحي بذاته لكي يسكن في الإنسان الذي مهما كان قلبه، هو غير نقي بالمرة. هذا تنازُل الروح القدس العظيم الذي يوازي تنازُل ابن الله، وقبوله أن يصبح في صورة العبد (فيلبي ٢: ٦-٨)، وأن يظل في هذه الصورة الإنسانية حتى بعد الصعود؛ لأنه صعد بها مؤكِّداً محبته للبشر.

هل بدا لك أن أول سمات المحبة هي تنازل الله عن مجده، بل عن قداسته وقوته وسلطانه لكي يحيا فينا في كياننا الهزيل ويسكن فينا؟ بعد أن غسل الرب أرجل تلاميذه، يقول لهم ولنا ولكل الكنيسة: "إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يوحنا ١٤: ١٣). هل يوجد تعليم أكثر وضوحاً من هذا يؤكد أن المحبة هي سكنى الثالوث فينا؟ وأن حفظ الوصية، أو حفظ كلام الرب هو أن نقبل التعليم الإلهي الذي يدعونا بشكل صادم: "أحبوا أعدائكم"؟ حتى مع العدو يجب أن نكون مختلفين عنه تماماً؛ لأننا إذا أبغضنا عدوَّنا صِرنا مثله، لذلك علينا أن نطلب نعمة الروح القدس، أي روح البنوة الذي يصرخ فينا: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٦).

نحن لا نستطيع أن نحب بجهدنا الذاتي. هذا ضد الطبيعة الإنسانية، ولكن عندما ننال معونة وسكنى الروح القدس فينا، نستطيع أن نحب فعلاً. نحن نطلب سكنى الروح القدس فينا في صلاة الساعة الثالثة كل يوم، وأنا أُحب -بشكل خاص- هذه الكلمات: "أيها الملك السمائي المعزِّي روح الحق، ... هلم تفضَّل وَحِل فينا وطهِّرنا من كل دنس".

قاطعته، فقد كنت أسأل نفسي مراراً: كيف نطلب حلول الروح القدس في الساعة الثالثة (٩ صباحاً) من كل يوم؟

فقال: هذا سؤال عجيب حقاً، يكشف عن ضَعف التعليم. وهذه ليست مشكلتك أنت، بل هي مشكلة هجران التعليم عن الروح القدس طوال العصر الوسيط. لا داع لأن أفتح سيرة هذا الموضوع، فأنت تعرف ماذا حدث عندما بدأ الكلام عن العنصرة وعن الباركليت. لكن ما هو مُسلَّم لنا هو ثلاثة أمور أساسية:

أولاً: طلب الحلول الدائم فينا كل يوم هو بمثابة استغاثة القلب المجروح المشتت الذي فقد الإحساس، وأنا لا أتحدث عن الشعور العاطفي، بل عن الحس الروحي بحضور الله فيه بسبب ازدحام العقل بالأفكار والانشغال بأمور متعددة، وهذا طبيعي بالنسبة للطبيعة الإنسانية الفقيرة الضعيفة التي تتغير كل ساعة.

ثانياً: والروح لا يفارقنا؛ لأن الله لا يتغيَّر إذا تغيَّرنا نحن، بل بسبب الضعف الذي فينا وُهِبَت لنا الجسارة أن نطلب سكنى الروح القدس، وأن ندعوه لكي يأتي إلينا ويحل فينا، رغم أنه كائن فينا؛ لكي يفتح الروح الوعي الإنساني الذي أغلقته مشاغل الحياة.

ثالثاً: إن المحب يقف دائماً على الباب يقرع كما قال الرب في سفر الرؤيا (رؤ ٣: ٢٠). هو دائماً معنا ويشتاق إلينا، ولكن إذا هجرناه، فهو يطلبنا مثلما في مَثَل الراعي الصالح (لوقا ١٥: ٣ – ٧) الذي يطلب الخروف الضال ويسعى وراءه، وعندما يجده **يفرح به**، بل ويحمله على منكبيه. وقد وجدت أقدم رسم في دهاليز روما القديمة يعود إلى القرن الثاني عندما كان المسيحيون يصلُّون في المقابر Catacombs ووجدت فيه أن الفنان أدرك قوة البشارة بالخلاص. عندما يطلب الراعي الخروف الضال، يحدث أمرين: يسعى إليه الراعي، والأمر الثاني هو استجابة واستسلام الخروف.

أنا أفهم أن صلاة الساعة الثالثة هي طلب الاستسلام للروح القدس لكي

يطهِّرنا من كل الشوائب التي تمنع المحبة. هذا ضروري جداً.

ولكن يبقى موضوع لابُد أن نفحصه معاً، وهو سمات أو خصوصية محبة يسوع. لدينا مثالٌ من الواقع لا يحتمل التأويل، فقد لَعَنَ بطرسُ الربَّ يسوع عندما أنكره أمام الجارية حسب شهادة إنجيل مرقس (١٤: ٧١)، ورغم إنذار الرب يسوع وتحذيره بعلامة، وهي صياح الديك، إلا أنه سقط وقال: "إني لا أعرف هذا الرجل"، كأن ما حدث على جبل التجلي لم يكن، وكأن غسل الأرجل لم يعد له مكان في قلبه، وكأن وكأن مثل إقامة الموتى وشفاء المرضى .. إلخ وماذا بعد هذا، هل طرده الرب يسوع؟ يا أخي نحن نخاف من محبة يسوع؛ لأنها تضرب أساسات الثقافة والعلاقة الإنسانية عندنا.

كان عندي أب كاهن عَرِفَ أن ابنته ليست عذراء، بل هي حامل في الشهر الثالث، وجاء لطلب مشورتي، وما إن كنت أوافقه على قتلها، وقد ارتعبت من السؤال. إذ كيف يمكن للثقافة السائدة أن تجعل أي إنسان يدير ظهره لتعليم الرب. وقلت له إن الرب يسوع حَكَمَ على جنس الرجال جميعاً بالزنى؛ لأنه قال: -عني وعنك- "كل مَن نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه"، أي في أعز وأقدس مكان في الكيان الإنساني. ألسنا جميعاً زناة، وألسنا جميعاً زناة حسب الشريعة؛ لأننا عبدنا آلهة أخرى، وهي خطية شعب إسرائيل "الزنى الروحي"؟ وخَجِلَ الرجل، وقلت له: اغفر لها لكي تغفر لنفسك ولي ولكل جنس الرجال.

أعود وأكرر، لقد أعاد الربُّ بطرسَ إلى مكانه، وقال له: "ارعِ خرافي"، بل أخبره عن طريقة موته. هكذا كانت محبة يسوع. لم يوجِّه يسوع اتهاماً؛ لأنه أخلى ذاته بما تطلبه المحبة الإلهية، فهي بلا مطالب؛ لأنها لم تأتِ حسب الشريعة، بل بعطاءٍ جعل الرسول يقول: "المحبة لا تطلب حقها، أي لا تطلب ما لنفسها" (١كو ١٣: ٥). لقد اسقط الرسول كل حدود الثقافة وكل حدود الشرائع في (١كو ١٣: ١-١١)، الذي قال عنه غير الفاهمين إنه (دستور المحبة)، فحولوه الى شريعة. ولكن، إذا جاز لنا

أن نستخدم كلمة "دستور"، بمعنى تحديد اتجاهات، فهذا مقبول، أما أن تتحول المحبة إلى شريعة، أي إلى قانون، فهذا ضد المحبة. وحاول أن تُراجِع معي على أي شريعة أو قانون تعرفه:

- المحبة تتأني. هل تعرف الشريعة ذلك؟

- المحبة ترفق. هل يوجد رفقٌ في القانون؟

- المحبة لا تحسد. هل يوجد حَدٌّ يمنع الحسد عندنا؟

وهكذا كل الصفات الأخرى، وهي قوة حياة المحبة القاهرة الغالبة.

لنتوقف عند محبة يسوع. مات من أجل الخطاة. فهل سبق موته دعوةٌ للتوبة؟ هتقول: نعم، في إعداد الموعوظين قديماً. أقول لك: هذا جزءٌ من الحق؛ لأن الموعوظين جاءوا من الوثنية، وكانت لهم ثقافة الجحود والقسوة والقوة والقانون والاستعلاء والرقي بالمعرفة والتقدم بالاستغلال، لذلك أبقوا على طبقة العبيد. كان من الضروري عمل تحوُّل meta-noia التي صارت "مطانية"، وهي الانحناء أو السجود، وهي تغيير اتجاه الجسم. إنها تغيير هدف الحياة، هذه هي التوبة؛ لأن يسوع يجب أن يُصبح هو الهدف، وهذا ليس شرطاً، بل هو **تحديد اتجاه من أجل الوصول إلى الهدف**. الشروط تدخل في العقد القانوني، أي الكونتراتو Contract.

لقد كان التجسد تطوعَ الصلاح الإلهي، و لم يكن عقداً بين الله والبشر. حتى العهد الجديد، هو عهدٌ بين الآب والابن كنائبٍ عنَّا.

سؤال: لقد "ذاب قلبي"، كما يقول المزمور، ولكن ما هو الجانب العملي أو التطبيقي؟

فقال: هل أنت مستعد لأنْ تسير حسب المحبة الإلهية؟

قلت: بعد كل هذا، يجب أن أقول: نعم.

قال: مِن كل قلبك؛ لأن ما تسأل عنه هو أن تفهم أن الخطية لا تقف بينك وبين الرب يسوع. هي ليست العائق الذي يصورِّه عندنا جميعاً الإحساسُ بالذنب. عندما يقول الرسول الإنجيلي: "المحبة تطرح الخوف خارجاً"، ولا "خوف في المحبة"، فهو يقصد ذلك الخوف الذي تزرعه الخطية في الإنسان. مخافةُ الله ليست هي خوف الخطية؛ لأن خوف الخطية متجذِّرٌ في الخوف من عقوبة الله، والإحساس بأن الله سوف ينتقم ويضرب. هذا تصوُّر الخطية، وهو آتٍ إلينا من الثقافة والعلاقات الاجتماعية ومن التطور، أو التراجع عن البلوغ، أعني النضوج العقلي. كل هذه الطبقات يخترقها الروح القدس لكي يزرع فينا استنارةً، ويكشف لنا الجانب السمائي الذي لا مثيل له على الأرض. مصيبةٌ كبرى، أننا أدخلنا الموازين الأرضية، وحشرناها في الأمور السمائية، وهذا موضوعٌ يجب أن تفكر فيه على قدر نموِّك، وعلى قدر محبتك أيضاً، ولن أُجيب عليك الآن لو سألتني عنه؛ لأنه سوف يمس حياة وتعليم الكنيسة أو الكنائس عندنا، وهو ما لا أريد أن أخوض فيه الآن.

أولاً: هو أن الروح يبدأ بالقديم لكي يحوله إلى جديد.

ثانياً: إن الجديد دائماً ينمو. وقد انعدم الحديث، بل والتعليم عن النمو.

سألت: أرجوك أن تبدأ بالجديد الذي يبدأ من القديم، على أن تترك موضوع النمو لفرصة أخرى.

قال: كلُّ الرذائل هي انحرافات الصورة الإلهية التي فينا عن عملها الأصلي، على سبيل المثال: إن حُب القِنية والامتلاك هو لامتلاك الملكوت والاحتفاظ الأبدي به، ولكنه يتجه –بسبب الكبرياء– إلى العنف أحياناً. الدفاع عن النفس أصلاً هو عدم التفريط بالعطية الإلهية، ولكنه يتحول إلى العدوان والهجوم على الآخرين. بل أعظم الرذائل هي الكبرياء، ولكن الكبرياء كانت أصلاً طلب مجد الله والتَّنعُم به، ولكنها

تحوَّلت إلى أنانية الإنسان واعتبار أنه هو مصدر المجد.

عندما نتمسك بالأبدي ولا نفرِّطُ فيه، فإن حُب البقاء وطلب المجد هو الصورة الصحيحة للكبرياء.

قاطعته: كلامٌ غريب .. هل هذا يعني أن لا نحارب الكبرياء التي أسقطت الشيطان؟

قال: الكبرياءُ التي لا تنمو من محبة، هي كبرياء الشيطان. أمَّا الكبرياء التي هي ثمرة المحبة، فهي تتحول ليس إلى الافتخار، ولا إلى تعظيم الذات، ولا إلى مقارنة الإنسان بغيره لكي يرى أنه أفضل مخلوقات الله، بل لكي يسعى بمحبة إلى طلب مجد الله ومحبته، وعندما تنفصل رغبتنا في مجد الله إلى تمجيد ذواتنا، نُصابُ بالكبرياء.

سألت: إذن، أنت تعتقد أن الكبرياء هي الكبرياء، ولا يمكن أن تتحول الى شيء آخر.

قال: لا. أرجوك افهمني. لا يوجد بتر وقطع في المسيحية. البتر والقطع هو الحل الغنوسي. وحتى عندما يقول الرسول بولس: "اخلعوا الإنسان القديم والبسوا الإنسان الجديد ..، فالكيان الإنساني يظل كما هو كياناً إنسانياً، ولكن خلع القديم هو الاستغناء التام عن المُثُل والقيم وكل محتويات الفكر القديمة البالية، ولذلك يقول الرسول: "تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم"، إذ يظل "الذهن" كما هو ذهننا، ولكنه يتجدد. والكبرياء هي الشر الأول، هي تحول الإنسان إلى شريعة الخير والشر، كما يحددها الإنسان لنفسه. ولكن يظل الجذر الصحيح هو طلب المجد والبقاء والحياة الأبدية، ورفض الموت ورفض الخطية. كبرياءُ بعض المبتدئين لا تسمح لهم بالزنى، ليس لأنهم أنقياء، ولكن لأن كبرياء المنصب والخدمة لا تسمح لهم بالزنى، فقد حصَّنت الكبرياء المبتدئ، ولكن الويل له لو سار في طريق العفة أو البتولية بدون جحد الذات؛ لأن تمجيد الذات يجب أن يكون محتوى، أي داخل في محبة الإنسان لنفسه ومحبته

للثالوث، وأن تصبح هذه محبة واحدة غير منقسمة.

سألني: هل تعرف ما الذي يُقسِّم المحبة؟

قلت: لا أعرف، بل لم أفكِّر في هذا السؤال الذي أسمعه لأول مرة.

قال: الخطية هي التي تُقسِّم المحبة. هي التي جعلت شخصاً أعرفه يحب سيارته أكثر من زوجته. وزوجةً تحب الكلاب أكثر من الأولاد، وعندما قلت لها على الأقل يجب أن تحب الكلاب والأولاد بنفس المحبة، لم يعجبها كلامي.

ولذلك، عندما نختار ما نحب، فالاختيار يجب أن يكون بدون تفضيل؛ لأن المفاضلة تزرع الأنانية وتجعل الأهواء هي قاعدة التفضيل.

سألت: هل أفهم أن الكبرياء باقية فينا.

قال: لا. الكبرياء التي تعمل من أجل الذات، هي الشر الكامن الذي يجعل الذات أضخم ما في الوجود. ربما ما سوف يساعدك ويساعدني هو أن من الكبرياء تُولِّد عزة النفس، فلا تعد أُمَّاً كما كانت، أي مجرد كبرياء، بل تصبح عزةَ نفسٍ تجعلنا نسمو ونعلو على ما هو "واطي" و"حقير".

سألت: كيف تشرح اهتمام الشيوخ بالوصف التقليدي: "الحقير القمص، أو الراهب فلان وفلان".

قال: هذا من أهم معالم النُّسك القبطي الأصيل. الإنسان حسب طبعه حقيرٌ، ولكن حسب نعمة الله، هو ابن الآب السماوي، ولا يجب أن نجعل من حقارة الإنسان إلغاء للنعمة. "حسب الطبيعة"، لا يجب أن تسود على "النعمة الإلهية" إلى درجة الوعي بالطبيعة، وإلغاء الوعي بالنعمة.